

الفصل التاسع:

المصعد ومهنة

عن الكراهية

والفراق

ودموع الندم

بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب، صابغة الموجودات بألوان نارية مذهلة.. ورغم ذلك لم يبدُ لهذا المنظر المبهري من تأثير على الثوار الذين استمروا في طريقهم والصمت يعلوهم كالعادة.. وكذلك لم تكذب بي ناريا تراه وفكرها مشغول بهارولان.. كانت عدة ساعات قد مضت منذ غادرها، وهو قبل رحيله لم يقل لها كم ستستغرق مهمته تلك وأين موقعها بالضبط..

وقبل الغروب، التقى الثوار بإثنين من رجالهم قادمين من إقليم سيرالدا القريب حيث قال أحدهما للرئيس بعد توقف المركبات "لقد استطلعنا الطريق حتى دخولنا إلى إقليم سيرالدا، الطريق آمن تماماً ولا أثر لحركة مشبوهة للجنود فيه.."

وأشار إلى موقع في الخارطة التي يملكها الرئيس مضيفاً "هذا موقع آمن يمكنكم قضاء الليلة فيه.. إنه بعيد عن أي طريق مستخدم، وأقرب قرية تبعد عنه أميالاً.. حتى لو أشعلتم النار فلن يعرضكم هذا لخطر.."

قال الرئيس "أحسنتم عملاً.. سنتجه إلى هذا الموقع على الفور.. يمكنكم المضي قدماً في طريقكم وسنلتقي عند حدود إقليم يانا"

غمغمت بي ناريا متسائلة وهي تسمع نقاشهما "إلى أي مدى أرسل الرئيس رجاله في استكشاف الطريق؟" أجابها تيمين "لقد أرسل عدداً من رفاقنا لاستكشاف الطريق بطوله إلى يناسا، والبحث عن أنسب الأماكن وأمنها لمبيتنا.. إن التحرك بمجموعة كبيرة من الثوار من الخطورة بمكان.. وهجوم الجنود علينا يعني القضاء على مجموعة كبيرة منا دون قتال"

قالت "لكن الجنود هجموا علينا في هيمانيا ونجونا بأقل الخسائر"

قال "لو فكرت في الأمر جيداً لوجدت الجنود قد استعجلوا بإطلاق النار علينا.. لقد قادنا الدليل إلى هذا الكمين عمداً وأوحى لنا أنها بقعة آمنة.. ولو انتظروا حتى نزولنا عن ظهور التوكور لكنت خسارتنا بالغة.."

عادت تسأله "وماذا عن أجهزة الإرسال؟ الثوار يملكون عدداً كافياً منها كما رأيت في المخبأ.. فلم لا يستخدمونها في التواصل بدل قطع المسافة هذه كلها ذهاباً وإياباً؟"

أجاب تيمين "حذر الرئيس الشديد دفعه لاتخاذ هذه الخطوة.. إمكانياتنا التقنية متدنية، ولن يصعب على مانيم التنصت على حواراتنا بإمكاناته التقنية العالية.. وهذا ليس في صالحنا بالتأكيد.."

غمغمت بغير تصديق "هذه مبالغة في الحذر.."

قال تيمين "بل هي مبالغة في الحرص على حياة كل هؤلاء الذين تقع مسؤوليتهم عليه.."

استمرت القافلة بالتحرك في طريق جديد باتجاه البقعة التي حددها الرجال على الخارطة.. ولم يكد الظلام يخيم عليهم حتى كانوا قد استقروا في معسكر صغير بعيد عن الطريق ووسط الأشجار التي تناثرت مانحة المكان وحشة أكثر.. لم تتعود بي ناريا على قضاء الليل في أحضان الطبيعة، لذلك ما إن يحل الليل حتى تشعر بأن المناظر البهيجة والجميلة صباحاً تتحول إلى لوحات موحشة وكئيبة تفرعها.. ومهما تغير المنظر تظل الوحشة هي ذاتها.. ورغم ذلك، شعرت هذه الليلة بالوحشة تزداد وبالعابرة تكاد تطبق على أنفاسها.. تعجبت من حالها..

أهذا بسبب غياب هارولان عنها؟.. تذكرت ما كانت عليه وما كانت تؤمن به في حياتها كأميرة في يناسًا.. أهذا هو الحب حقاً؟ ما الذي يجعلها تشعر بالأمان لوجود رجل بعينه؟ رغم الكثيرين المحيطين بها والذين لا تشك أن أحدهم سيحميها من أي خطر يتهدها، لكنها في تلك اللحظة لم تشعر إلا بحاجتها لوجود رجل واحد.. شعرت بصدرها يضيق بأفكارها وتفكيرها المنحصر في هارولان.. ماذا لو أخطأت الظن به؟ ماذا لو كان قاسياً؟ لو كان نذلاً كما كان مانيم؟ ألن تنكسر روحها إن حدث شيء من ذلك؟ ألن تفقد ثقتها بنفسها وتلعن قلبها الذي تذلل بحثاً عن الحب؟..

تنهدت بصمت وهي ترى الرئيس يقوم بتعيين منوبات المراقبة، والرجال يقومون بإشعال عدة نيران ليتحركوا حولها.. فاقتربت بي ناريا من إحداها بحثاً عن الدفء الذي لم تذقه منذ عدة ليال.. وتناولت حصتها من الطعام القليل الذي أحضروه لها ثم لفّت جسدها بالمعطف وظلت رابضة في موقعها تراقب النيران.. حسب تقديرها بقي يومان على وصولهم إلى يناسًا، وعندها ستبدأ الأحداث الحقيقية.. تنهدت وهي تفكر في أمرها مع هؤلاء الثوار.. هل تكشف لهم حقيقتها قبل وصولهم إلى يناسًا وتتفق معهم على المضي في الخطة مقابل أن تمنحهم ما يرغبون به بعد العودة إلى العرش؟ لكن هناك احتمال أن يتخلوا عنها عند معرفة هويتها.. فهم رغم زعمهم المضي لتحريرها من يد مانيم فإنهم لا يخفون كرههم لها.. أغلب الظن أنهم يحاولون خداعها ليستفيدوا مما تملكه من معلومات، أما غرضهم الحقيقي فهو الإطاحة بمانيم وبها من الحكم معاً..

الحل الآخر هو أن تتكتم على شخصيتها حتى يتمكنوا من النفاذ إلى القصر.. وهناك، حتى لو اكتشفوا أمرها، فإن من تثق بهم من الجنود الذين ظلوا على إخلاصهم لها ولأبيها الملك الراحل سيمنحونها الحماية الكافية ضد هؤلاء الثوار.. عقدت عزمها على الحل الأخير وهي لا تنوي تسليم رقبتها لهؤلاء الثوار.. يجب أن تلعب هذه اللعبة بذكاء وتحذر من الجميع حتى تعود إلى القصر حيث هي الأقوى..

بعد فترة طويلة من الصمت، نهضت بي ناريا وهي عاجزة عن النوم كما فعل الرجال الذين لم يقوموا بالمناوبة، واتجهت إلى الرئيس الذي كان منعزلاً عن البقية فسألته "أين هارولان؟ لقد مضى وقت طويل ولم يعد حتى الآن.."

رفع الرئيس رأسه إليها مجيباً بابتسامة "لا تقلقي.. سيعود فور إنهاء مهمته.."

عادت تسأل "متى؟"

قال الرئيس هازاً كتفيه "لا علم لي بالتأكد.. لكن لن يكون هذا الليلة قطعاً"

قالت مقطبة "إن لم يعد الليلة فسيغدو من الصعب عليه اللحاق بنا.. كيف سيستدل على موقعنا إن ابتعدنا أكثر من هذا؟.."

قال الرئيس وهو يعود لأوراقه التي يتأملها بلا انقطاع "قلت لك لا تقلقي.. سيعود.. هذا كل ما يمكنني قوله"

شعرت أنه لا يريد الاستفاضة بالحديث، فعادت وشيء من الحق يتسلل إليها.. يبدو لها الرئيس غير مهتم حقاً بما يحدث لرجالها.. فإن أصاب هارولان ضرر هذه المرة لن تصمت على هذا أبداً.. لن تصمت البتة..

في اليوم التالي، قطعت القافلة حدود سيرالدا مع نياما بيسر لخلوها من أي مراقبة.. واتخذت القافلة خط سير غير معبد في أغلبه مبتعدين عن القرى المتفرقة والمدن المتوسطة الحجم.. ورغم سلاسة الطريق حتى الآن، فإن التوتر يزداد بالثوار أكثر فأكثر كلما اقتربوا من يناسا.. في صباح ذلك اليوم، حاولت بي ناريا استدراج الرئيس ليفصح عن خططهم المزمع تنفيذها في يناسا، لكنه رفض بإصرار دون أن يتخلّى عن حذره الشديد وهو يقول لها مكرراً "لكل شيء أوانه.."

كانت تخشى أن يعتمدوا على خطة هزيلة توقعهم في قبضة مانيم منذ اللحظات الأولى، خاصة وأن ما يعرفه الثوار عن يناسا والقصر لا يتعدى ما زودتهم به، لكن الرئيس قد استبعدا تماماً من خطته واحتفظ بها بينه وبين بعض من أخص رجاله.. لذلك فقد كان قلقها يزداد أكثر فأكثر وهي ترسم في ذهنها خططها الخاصة.. وعند حدود يانا، توقفت القافلة للمرة الأخيرة مع حلول الظلام في بقعة انتشرت فيها غابة مترامية الأطراف.. وقفت بي ناريا تنتظر للغابة حولهم في جميع الاتجاهات بانتظار أن تلمح هارولان قادماً تجاههم.. طال غيابه كثيراً وهي غدت بأشد القلق عليه، لكن هدوء الرئيس كلما سألته يجعلها تسكن قليلاً، لكن في أحيان أخرى يثور غيظها من بروده الشديد..

تنهدت وهي تتطلع للسماء باتجاه يناسا التي لا يطالها بصرها من هذا البعد، وقلبها يخفق قلقاً ولهفة.. قلقة خوفاً مما سيحدث، ومن عدم تمكن هارولان من اللحاق بهم، ولهفة للعودة إلى مدينتها الحبيبة، ولاستعادة كل ما فقدته.. بقيت مسافة لا تتجاوز نصف نهار وسيصلون إلى أسوار يناسا الرائعة..

ظلت واقفة مكانها وهي تنتهد، وتستمتع إلى الرئيس الذي جمع رجاله حوله قائلاً "غداً هو اليوم الموعود يا رجال.. غداً مع حلول الظلام ستحين ساعة الصفر، وعندها يجب أن نفلح بالتغلغل في المدينة واتخاذ مواقعنا لنبدأ عملياتنا وننتهز غفلة مانيم وجنوده.."

قال أحد الرجال "إنهم يعلمون بقدمنا.."

علّق الرئيس قائلاً "يعلمون بقدمنا لكن لا يعلمون متى.. مانيم يظننا نرتحل على ظهور التوكور، ورحلة كهذه تستغرق أكثر من أسبوع وزيادة.. لن يتوقع أن نصل بهذه السرعة.."

وعين فرق المناوبة لهذه الليلة قبل أن يعتزلهم مع عدد قليل من رجاله يتفحصون الخرائط التي يملكونها ويراجعون خططهم للمرة الأخيرة.. تمنّت بي ناريا لو تقترب منهم لتستمع لخططهم، لكن خوفها من إثارة الشبهات بإصرارها منعها من هذا وهي تجلس قرب إحدى النيران التي تضيء الغابة..

مرت الليلة بطيئة للغاية، ورغم محاولة بي ناريا البقاء مستيقظة ما استطاعت في انتظار هارولان، إلا أن التعب غلبها فغفت وهي تتدثر بمعطف هارولان الذي تركها تحتفظ به وكأنها تحاول طمأنة نفسها أنه سيعود لها.. كان قلقها الشديد عليه قد تغلغل في أحلامها، فرأت وهي بين النوم واليقظة عدة مناظر أرعبتها وهي لا تدرك ما الواقع منها وما الحلم.. رأت هارولان ينظر لها بكراهية.. ورأته أرضاً والدماء تتصبب من جراح في صدره

وعنقه.. ورأته يهجم عليها حاملاً خنجراً مسلولاً.. كانت تلك الرؤى تصيبها بالذعر وهي تشعر بالعرق يتجمع على جبينها.. رأته أخيراً جالساً قريباً ينظر لها بحنان دافق، ويلمس خدها بأصابعه برقة.. انتبهت في تلك اللحظة للملمس البارد على خدها، فنهضت مفزوعة وهي تنظر للجالس قريبها والظلال تتماوج على وجهه.. شهقت بشيء من الذعر لدى إدراكها أنه ليس حلاً، عندما سمعت همسه يقول "هذا أنا يا فتاتي.. لا تخافي.."

فهمست بدورها بصوت حاولت السيطرة على رجفته "هارولان؟" شاهدت بسمة ترتسم على شفثيه وهو يحيط وجهها بيديه مغمماً بحنان "أجل.. عدت إليك يا زهرتي..". حاولت بي ناريا تهدئة نفسها ودقات قلبها المتسارعة.. لكن قبل أن تتفوه بكلمة سمعت الرئيس ينادي هارولان، فقال لها "عودي لنومك يا زهرتي.. لم أرغب بإيقاظك، لكن لم أستطع فور وصولي إلا أن أطمئن قلبي برؤية وجهك الحبيب.."

ووقف مبتعداً تجاه الرئيس فيما جلست بي ناريا بعد أن طار النوم من عينيها.. تنهدت بارتياح وهي ترى وجه هارولان على ضوء النيران التي يجلس قريبها الرئيس، وتأكد لها أنه بخير لم يصب بمكروه.. اقتربت من النار القريبة منها محاولة الحصول على بعض الدفء وهي تفكر في المهمة التي استغرقت من هارولان كل هذه المدة.. خاصة أنه ذهب لينجزها بمفرده دون الاستعانة بأحد.. لكنها علمت أنه لن يفوه بكلمة مما جرى له..

أما هارولان، فقد بادر الرئيس فور جلوسه قربه بالقول "لا تقلق.. لقد أتممت مهمتي على أفضل وجه.. أما استطعت تركي لأنعم ببعض الوقت مع فتاتي؟"

ابتسم الرئيس معلقاً "بودي ذلك طبعاً.. لكن ما نحن فيه أهم من أي شيء آخر.. أخبرني بما فعلته منذ مغادرتك حتى الآن.."

قال هارولان "لقد وصلت إلى موقع الحمولة فاطمأنت أن الجنود لم يعلموا بموقعها بعد.. لقد أحسن الرجال بتغيير موقعهم لكي لا يداهمهم الجنود على حين غرة.. فقدتُهم إلى المدينة بعد أن موَّهنا الحمولة لكي لا ينكشف أمرها أمام الجنود.. وأرسلت عدة رجال قبلنا يستطلعون الأمر، فعادوا بخبر مذهل عن وجود مدخل خلفي للمدينة، ويبدو أن الجنود لا يعلمون عنه شيئاً" قال الرئيس بدهشة "مدخل خلفي؟ كيف؟"

أجاب هارولان "مدخل لن يخطر على بال أحد.. وقد لمح رجالنا بعض المتسللين يستخدمونه بالصدفة البحتة.. لكنه للأسف لا يتحمل دخول هذا العدد الكبير من الثوار وإلا انكشف أمره على الفور.. لكن لكي نستطيع إدخال الحمولة عبره كان علينا الحفاظ عليها من البلل، لذلك...."

قاطعه الرئيس بغير تصديق "البلل؟ لقد أفسدت الحمولة تماماً أيها الأحمق"

ضحك هارولان معلقاً "وهل أنا أحمق بالفعل لأعرضها للبلل وأنا أعلم ما تحتويه؟ لقد تفادينا هذه النقطة بحيلة بسيطة تماماً.. غطيت الصناديق بشكل محكم بمادة يستخدمها المزارعون لحفظ حبوبهم من البلل، جلبتها من

مزارع قريبة من المدينة بمبلغ كبير.."

تساءل الرئيس "وكيف عرفت بوجود مثل هذه المادة وأنت لا خبرة لك في الزراعة وأدواتها؟"

أجاب هارولان "كنت أبحث بالواقع عن صناديق محكمة ضد البلل، لكن أحد المزارعين قد دُلني على هذه المادة ووصفها بأنها أفضل في الحفاظ على محتوى الصناديق.."

قال الرئيس "أتمنى ألا تكون قد كشفت هويتك أو محتوى الصناديق لهم؟"

هز هارولان رأسه نفيًا قائلاً "أطمئن.. بعد ذلك تسللنا بالحمولة كاملة على عدة مراحل مستغلين الظلام وكون الكشافات المستخدمة في الأبراج القريبة لا تكشف تلك البقعة.. وفور تجاوزنا للسور عملت على إيصالها لموقعها الذي حددته لي وسلمتها لرجلك شخصياً.. ولقد تأكدت أنها سليمة لم يمسه البلل البتة بعد وصولها.."

قال الرئيس زافراً "أحسنت صنعاً.. تلك كانت أهم عقبة في طريقنا وقد تجاوزناها.. لكن هل تستطيع أن تدلني على موقع ذلك المدخل؟ سأضعه في حسابي فقد أحتاج لاستخدامه عند دخولنا.."

استخرج خارطة من جواره وفتحها، فنظر هارولان إليها للحظات قبل أن يغمغم قائلاً "أعتقد أن هذا هو موقعها.. لست متأكداً قرب أي مدخل كنا لأن المدينة دائرية وجميع تفاصيلها الخارجية من أبواب وأبراج وقنوات متشابهة.. كما أنني لم أكن أحمل أي خارطة لتأكد من موقعي.."

بعد جلسة طالت مع الرئيس، رأى هارولان بي ناريا تقترب منهما وهي تقول "ألم تنتهيا من حواركما بعد؟ يجب أن تنال قسطاً من الراحة يا هارولان فغداً يومنا حافل.."

جلست قربه عند النار وهو يبتسم مجيباً "تكفيني رؤية وجهك الجميل لأشعر بالراحة"

تورد خذاها لقوله لكنها قطبت معلقة "هذا قول فلسفي.. عندما نبدأ بالرحيل غداً ستكون قد استنفدت طاقتك وستستسلم للنوم دون اعتبار لأحد"

ضحك هارولان معلقاً "يا للرقّة.. وهل اعترافي بمكنون نفسي قول فلسفي؟"

قاطعهما الرئيس وهو يقول "غداً يوم حافل بالفعل.. انعما بالراحة فقد لا تحصلان على راحة أخرى قبل انقضاء الأمر كله.."

غمغمت بي ناريا "أتمنى أن لا تطلع الشمس بعد غد إلا ونحن منتصرون على مانيم"

ضحك الرئيس معلقاً "أنت متفائلة.."

فقال هارولان بجدية "أريد أن تلجأ جوين إلى مخبأ آمن في المدينة.. لا أريد تعريضها للخطر في هذه المرحلة"

نظرت له بي ناريا بدهشة وضيق فيما قال الرئيس منقلاً بصره بينهما "هي لم تقطع هذه المسافة معنا كي تختبئ عند اشتداد الأحداث.. نحن بحاجة لها في القصر وهي قد وعدت بمساعدتنا"

قالت بسرعة "هذا ما سيحدث.. يمكنني المساعدة بعدة طرق ولست أخاف من الخطر"

اعترض هارولان قائلاً "لكن ما سيحدث في العاصمة يختلف تماماً عن كل ما مررنا به في طريقنا إلى هنا.. أخاف أن يمسك سوء وسط المعمة التي ستحدث دون أن أتمكن من حمايتك.."

قالت معترضة "لكني يجب أن أعود إلى القصر.. أنا الوحيدة بينكم التي تعلم بموقع بي ناريا.. ويمكنني معرفة

الجنود المخلصين لها وإقناعهم بالانضمام إليكم في التخلص من مانيم.. أنتم بعددكم الضئيل هذا لا يمكنكم التغلب على جنود مانيم كلهم.."

قال هارولان بجدية "الأمر ليس بالعدد بل بالخطط.. وأنا لا أقبل تعريضك للخطر مهما حاولت اقناعي.." فقال الرئيس "لا يمكنك أن تقرر شيئاً كهذا الآن يا هارولان.. على جوين مساعدتنا في التسلل للقصر وجمعنا بالجنود الذين تثق بهم.. وفور أن تتم مهمتها يمكنها اللجوء للاختباء وانتظار انتهاء ما بقي من المراحل الخطرة.."

ظهر الضيق جلياً على وجه هارولان، فيما هزت بي ناريا رأسها موافقة.. وعندما التفتت إلى هارولان وجدته واجماً بصمت والقلق ظاهر على وجهه، فمالت بي ناريا تجاهه هامسة "ألم تعد أن تحميني دائماً؟" قال بضيق "حمایتك هنا أمر وحمایتك وسط الجنود أمر آخر.."

صمتت بي ناريا دون تعليق وهو يعزف عن الحديث بدوره.. لكن قطع صمتهم صوت حوافر تقترب منهم بشكل حثيث، فوقف هارولان متأهباً ويده تمتد إلى سلاحه بسرعة، لكن إشارة من أقرب الرجال الذي يراقب الموقع أنبأتهم عن حقيقة القادم الذي لم يكن إلا أحد رفاقهم.. فهدأ هارولان من جديد والرجل يتقدم من الرئيس ويهبط عن ظهر التوكور ليقترّب من النار مغمغماً "البرد شديد هذه الليلة.."

سأله الرئيس "ما الذي جاء بك من يانا قبل موعد التقائنا؟ هل جدّ جديد؟"

قال الرجل وهو يفرك يديه أمام النار "بلى.. أثناء اختبائنا رأينا جنديين يتسللان في الجوار، كدنا نطلق عليهما النيران لكن وجود فتاة معهما منعنا من هذا فقبضنا عليهم خوفاً من كشفهم لموقعنا أو اقترابهم من موقعكم وإفشال خطتنا.."

تساءل الرئيس "وبعد؟"

قال الرجل مكماً "كانت الفتاة تهذي بكلام كثير.. عرّفت أننا لا ننتمي لمانيم ولست أدري كيف عرفت أننا من الثوار.. وهي تسألنا عن بي ناريا بإلحاح"

قطب الرئيس مفكراً في معنى ما سمعه بينما ارتجفت أعماق بي ناريا وهي تدرك أن أمرها سيفتضح ولا شك.. سمعت الرجل يضيف "تقول الفتاة أن بي ناريا ليست في القصر ولا في يناساً كلها، وأنهم يبحثون عنها بأوامر من الملكة الأم.. يبدو أنها أفلحت بالهرب من مانيم"

تساءل الرئيس "ألا يعلمون إلى أين هربت؟"

قال الرجل وابتسامة ساخرة لم تفت بي ناريا ترتسم على وجهه "يبدو أنها هربت إلى هيமானيا.."

امتزج الاستنكار بالسخرية في وجوه الرجال من حولها ممن كان مستيقظاً، مما جعل بي ناريا أكثر قلقاً وارتباكاً.. وهي تصغي للرجل يضيف "ماذا نفعل بهم؟ نحن لا نثق بهم تماماً ونخشى إن أطلقناهم أن يبادروا لإبلاغ مانيم بأمرنا.."

قال الرئيس "لا يمكن أن نطلقهم ونحن على أبواب بدء مهمتنا.. أحضروهم إلى هنا وسأحقق معهم بنفسي.. ولا تنسوا تجريدهم من الأسلحة.."

فقال الرجل وهو يمتطي التوكور من جديد "حسناً.. موقعهم بعيد بعض الشيء.. لذلك سأحاول إحضارهم قبل طلوع الشمس.."

وانطلق مسرعاً كما أتى، بينما غمغم الرئيس متنهداً "هذا يغير أموراً كثيرة"

بينما بقيت بي ناريا تحديق في النيران واضطرابها يتزايد.. من هم هؤلاء الذين يبحثون عنها؟ هل تعرفهم؟ وهل سيتعرفونها بتكرها هذا إن رأوها بين الثوار؟ قضت الساعات الباقية على النهار في ارتباك متزايد وهي غير قادرة على تهدئة نفسها أو العودة للنوم.. بينما انشغل هارولان مع الرئيس في حديث جانبي لم تسمع منه شيئاً..

وقرب الفجر، ومع إدراك بي ناريا أن قدوم الرجال مع الجنديين من العاصمة قد اقترب، لم تستطع السيطرة على قلقها الذي انقلب خوفاً مذعوراً.. كان الجمع قد استيقظ وجلسوا بانتظار رفاقهم قبل بدء المسير إلى يناساً.. ففكرت بي ناريا أنه من الأفضل لها الابتعاد والإختباء حتى تتأكد من هوية القادمين من يناساً.. لا تريد لأمرها أن ينكشف وهي قاب قوسين من النجاح.. فنهضت من مكانها بغية المغادرة، لكن هارولان أمسك يدها متسائلاً "إلى أين؟"

قالت دون أن تفلق في إخفاء اضطرابها "أريد الابتعاد.. أخشى مقابلة أناس من القصر.. ولا تنسى أنني مطلوبة من مانيم.."

جذبها لتجلس من جديد قائلاً "لا تخشي شيئاً وأنا معك.. لن يجرواً أحدهم على مسك بسوء..".
ظهر القلق والتوتر جلياً على وجهها، فأحاط كتفها بذراعه وأمسك يديها المشتبكتين بيده مغمماً "ألا تثق بي زهرتي؟"

خفضت بصرها هامسة "أثق بك، لكنني لا زلت خائفة..".
فقال "لقد طلبت مني حمايتك.. فعلى الأقل امنحيني ثقتك..".
منحته ابتسامة مضطربة وهي تقول "لم أتردد في الثقة بك يوماً..".
لمس خدها هامساً "أحقاً أنت لي؟"

تطلعت إلى وجهه الحاني والدفع يغمرها قائلة بصوت خافت "أنا لك دائماً..".
ابتسم هارولان بسعادة غامرة وهو يضم كتفها بقوة أكبر، فيما أراحت بي ناريا رأسها على كتفه وشيء من الهدوء يتسلل إلى أعماقها مزيلاً اضطرابها..

بدت لها مخاوفها بعيدة وكأن لا وجود لها.. من المستحيل أن يسمح هارولان بأي ضرر أن يصيبها.. من المستحيل أن يسمح لرفاقه بأن يؤذوها مهما كان غضبهم شديداً.. بل من المستحيل أن يغضب هارولان أو يكرها لو عرف حقيقتها..

شعرت أن هذا هو المكان الذي لا تود مغادرته، إلى جانب هذا الرجل.. ولدهشتها لم تبد فكرة الانضواء تحت جناحه مرعبة لهذه الدرجة.. في الواقع وجوده قربها منحها شعوراً بالأمان لم تقدر الجيوش المحيطة بالقصر منحها إياه.. ابتسمت وهي تتخيل ردة فعل والدتها للتغير الذي ألم بشخصيتها.. قد لا تصدق أنها هي ذاتها

بي ناريا التي كانت تصفها بالقسوة وانعدام المشاعر.. أما الآن.....

ظهر عدد من الثوار في تلك اللحظة يحيطون بالجنديين والمرأة الذين قبضوا عليهما، وفور أن ظهر وجه المرأة لبي ناريا جلياً اعتلاها الذعر وهي تتعرف جوين التي أخذت تتلفت في وجوه الجميع قلقاً.. فهبت بي ناريا على الفور مديرة ظهرها وهي تنوي الابتعاد قبل أن تقترب أكثر وتراها، لولا أن استوقفتها شهقة جوين المدهشة وهي تصيح "مولاتي..؟!"

تجمدت بي ناريا مكانها والصمت يسود البقعة وكأنه كان هناك منذ الأزل.. شعرت بارتباكها يشعل لهيباً في أعماقها، فيما انساب العرق البارد على صدغيها وهي تشعر بأنظار الجميع سهاماً ساخنة تخترق ظهرها.. لم تتوقع أن ينكشف أمرها بهذه السرعة.. لكنه حدث.. وعليها مجابهة الأمر رافعة رأسها كملكة.. استدارت نحو جوين وهي تشعر بالعيون متعلقة بها باستنكار مذهول.. فيما أسرع جوين ومن خلفها الجنديين بالركوع أمامها وجوين تقول بغير تصديق "مولاتي الملكة.. من كان يتوقع أن أجذك هنا ومع هؤلاء؟ ستسعد الملكة الأم بسماع هذا الخبر.. ستسعد حتماً"

تصاعد الاستنكار واللغط من حولها وهي تشعر بضيق لم تظهره.. ألهذه الدرجة أنت حمقاء يا جوين؟ كان عليها الانتظار حتى تخلصان معاً، لا أن تكشفها بهذه الطريقة وأمام الجميع..

تابعت جوين وبي ناريا ترى دموعاً تحتشد في عينيها "لقد طلبت مولاتي الملكة الأم أن أنطلق بحثاً عنك.. لقد أكلها الخوف عليك طوال هذه المدة، ولم تسكن وهي لا تعرف أنجوت من سقوط الطائرة أم لا.. إنها مريضة جداً، وهي كانت تود أن تراك ولو لمرة قبل أن تموت"

قالت بي ناريا بقلق "الملكة مريضة؟ ما بها؟ ماذا قال الأطباء عنها؟"

قالت جوين بمرارة "مانيم قد منع جميع الأطباء من الاقتراب من جناحها، وهي محجوزة هناك حجزاً إجبارياً منذ شك بمساعدتها لك في الهرب.. ولو كان قادراً على قتلها لفعل منذ أمد بعيد"

سمعت بي ناريا الرئيس يقاطعهما قائلاً ببطء وهو يقف "أأنت حقاً الملكة؟ الملكة بي ناريا ذاتها؟"

أجابت بي ناريا رافعة رأسها "أجل.. أنا الملكة بي ناريا.."

زين لها غرورها للحظة أنها ستري الرجال يركعون لها، لكن بدا أن عكس هذا قد حدث، إذ نهض الجميع وقوفاً بوجوه قاتمة مرعبة، فيما قال الرئيس وكأنه يحاول الاستيثاق من الأمر "لكنني رأيت صورة الملكة، وأنت لا تشبهينها كثيراً"

قالت بي ناريا "لا تتوقع مني أن أجول بهيئتي الحقيقية.. لكنني أنا الملكة بي ناريا ذاتها.."

كانت مثبتة بصرها على وجه الرئيس متجنباً النظر إلى وجوه الآخرين.. لكن رغماً عنها وجدت نفسها تنظر إلى وجه هارولان الواقف إلى جوارها.. لم تتبين حقيقة مشاعره تماماً.. كان مذهولاً... جامداً... مستنكراً...

مرتعباً... أي من هذه المشاعر وربما كلها.. من بين الجميع كانت مشاعره هو أكثر عنفاً..

لم تستطع الصمود أمام نظراته المثبتة على وجهها فالتفتت إلى الرئيس مجدداً مغالبة ضعفها لتقول "ربما ترغبون مني تفسير ما يحدث.. لكنني لا أجد أنني مطالبة بتفسير أي شيء"

قال الرئيس مبتلعاً دهشته "لا نريد منك أي تفسير.. فسبب ما فعلته واضح وضوح الشمس" قطبت وهي تحاول فهم قوله، عندما شعرت بهارولان يتقدم منها خطوة مغمماً بأنفاس ثقيلة "أنت الملكة؟" انتفض قلبها لصوته الذي يحمل رنة لم تسمعها من قبل، لكنها لم تلتفت إليه لئلا تظهر ضعفها وهي تجيب شامخة "لست بحاجة لأن أكرر ذلك.."

فوجئت بالرئيس يقول بصوت عالٍ ولهجة حازمة "قف مكانك يا هارولان.."

نظرت تلقائياً إلى هارولان فوجدته ينظر إليها بنظرة أرعبتها ووجهه يحمل غضباً هائلاً لم تعرف سببه، عندما عاد الرئيس يقول بصوت أشد "ابتعد عن هذا المكان حتى تهدأ.. الآن"

ظل هارولان ينظر إليها بنظرات ملتعبة، ثم استدار على الفور وجدّ الخطى بعيداً دون أن يعلق فرد على ما حدث.. بينما ظلت بي ناريا تنظر إلى حيث اختفى وهي تشعر بارتجاف أعماقها.. أهو غاضب لهذه الدرجة لأنها خدعته؟ لا يستحق هذا كل ما قرأته في عينيه..

قطع تفكيرها قول الرئيس بصوت هاديء "هذا يغير كل شيء.."

قالت بي ناريا متحدية "ما الذي تغير؟ أنتم كنتم ذاهبين للعاصمة لتحرير الملكة.. وها هي محررة أمامكم.. فلم لا تمضون في مخططاتكم؟ ألم تكونوا راغبين بإزاحة مانيم؟ إذن أهدافنا واحدة"

قال الرئيس "الأمر ليس بالسهولة التي تظننها.. وأظنني بحاجة للتشاور مع رجالي حول الخطوة التي سننجزها الآن.. بعد إذنك طبعاً.."

فهمت من تلميحه أنه يود الاختلاء برجاله، فابتعدت بي ناريا بوجه مرفوع وهي تشير لجوين لكي تتبعها.. ولما اختلتا بعيداً عن الآخرين قالت لها بغضب "ما زلت حمقاء كما عرفتكم دائماً.. ألم تدركي أنك تعرضين حياتي للخطر؟"

شحب وجه جوين بشدة وهي تغمغم "لم أقصد ذلك مولاتي.. عندما علمت أنهم الثوار الذين قدموا لقلب العرش على مانيم، جعلني هذا آمن جانبهم وأثق أنهم معنا في صف واحد"

قالت بغیظ "إنهم ثوار.. يريدون قلب الحكم، عليّ أو على مانيم لا فرق.. ولولا أن رئيسهم حكيم وغير متسرع لمزقوا أعناقنا جميعاً في ثانية واحدة"

انحنى جوين قائلة "سامحيني مولاتي.. أعترف بغبائي واندفاعي.. لكنني دهشت عندما رأيتك بينهم، وظننت أن الجميع يعرفون هويتك"

زفرت بي ناريا مغممة بحلق "كيف لي أن آمن وأنا محاطة بمن يكرهونني؟"

ثم حاولت تجاوز أفكارها هذه وهي تقول لجوين أمرة "أخبريني بكل ما دار في القصر منذ هروبي.. ماذا فعل مانيم الحقيير بالملكة؟ أرجو ألا يكون قد مسّها بسوء"

قالت جوين والضيق يبدو على ملامحها "منذ هروبك قلب مانيم القصر رأساً على عقب بحثاً عن الخونة الذين ساعدوا في تهريبك.. ولم يكن صعباً عليه أن يشير إلى الملكة الأم بالاتهام.. حاول منها أن يعرف المتعاونين معها في ذلك، أو يعرف إلى أين هربت وكيف.. لكنها رفضت الإدلاء بكلمة واحدة.. فما كان منه إلا أن حجزها

في جناحها بحراسة مشددة لا يسمح لأحد بالدخول عليها سوى، كي أزودها بالطعام والشراب.. وقد تعهدوا بأن يقتل مولاتي الملكة أمام عينيها، وبعد ذلك سيقتل الملكة الأم ويرمي الجثتين خارج القصر دون دفن يليق بهما عبرة للآخرين.."

قطبت بي ناريا بغضب وجوين تضيف "بدأت الملكة تمرض وهي أسيرة أفكارها وخوفها عليك.. مهما حاولت تهدئتها كانت تزداد مرضاً وهواجساً.. صرت أخاف أن تنام فلا تستيقظ.. ومنذ أيام قليلة طلبت مني أن أبحث عنك وأعود إليها بأخبارك.. أوصتني ألا أعود إليها قبل أن أصل إليك.. حاولت العثور عليك مولاتي بأسرع ما أستطيع كي أعود إلى الملكة الأم لأطمئنها وأعتني بها قبل أن تسوء حالتها أكثر من ذلك....."

سألتها بي ناريا "وكيف علمتم أنني هنا؟"

قالت جوين "لقد أبلغنا المستشار بوجودك في هيمانيا وأنتك ربما لجأت للثوار.. لم أستطع الذهاب إلى هيمانيا جواً لكى لا ألفت الأنظار لكون الطائرات المسموح لها بالنزول في ذاك الإقليم تتبع الوالي فقط.. لذلك قررنا سلوك الطريق البري الممتد عبر سيرالدا وننينا حتى الوصول إلى هيمانيا.. ومن حسن حظي أننا التقينا بك هنا غير بعيد عن يناسا.."

وتطلعت إلى بي ناريا قائلة "يجب أن نعود بأسرع ما يمكن يا مولاتي.. مولاتي الملكة بحال سيئة.. ولا بد ستصبح أفضل حالاً عندما تراك وتطمئن عليك.."

قالت بي ناريا "لا بد أن أنتظر رأي الثوار فهم سيمنحوني الحماية اللازمة في المدينة والقصر.. وماذا استجد في القصر والمدينة غير ذلك؟"

انطلقت جوين تشرح لها ما رأيته ولاحظته تحت حكم مانيم، وبي ناريا تستمع إليها وغضبها يتزايد لحظة فلحظة.. الويل لك يا مانيم.. الويل لك..

بعد أن أنهت بي ناريا حديثها مع جوين، لم تجد بداً من العودة إلى بقية الرجال وقد عازمت على الاتفاق مع الرئيس كي يستطيع كل منهما تحقيق أهدافه.. هي بالعودة إلى العرش والانتقام من مانيم، وهو بتحقيق العدل الذي ينشده.. كانت لا تعلم ما هي فكرته عن العدل، لكنها قررت أن هذا أفضل شيء لتقنع الثوار بمساعدتها، ومتى تولت الحكم، فلكل حادث حديث..

عندما وصلت إلى حيث اجتمع الآخرون بحثت تلقائياً ببصرها عن هارولان.. فلم تعثر عليه بينهم.. غمرها شيء من القلق عليه واستدارت لتتبع الطريق الذي رأيته يتخذه عندما غادرهم.. ماذا تقول له؟ بأي كلمة ستبدأ؟ بأي شيء ستبرر ما فعلته؟ هو الذي وثق بها ومنحها حبه وحمايته.. وهي التي خدعته.. هل سيصدق أن خوفها من خسرانه هو الذي جعلها تحتفظ بصمتها مدة أطول بعد أن اعترف بحبه لها؟ ليته يفعل.. قد يعذرها إذ ذاك.. رأيته جالساً فوق العشب وحيداً وإن لمحت غضبه من كتفيه المشدودتين وعروق رقبتة النافرة.. توقفت مترددة

لثانية، ثم اقتربت بهدوء هامسة "هارولان.."
فوجئت به يقفز واقفاً وهو ينظر إليها بعينين مرعبتين، فتراجعت خطوة وهي تقول متوترة "هارولان.. ما بك؟"
قال من بين أنفاسه الثائرة "لماذا كذبت علي؟"
قالت وهي تخفض وجهها "لم أقصد أن أكذب عليك.. خشيت أن تبعد عني إن عرفت حقيقتي.. أردت أن استوثق من حبك لي قبل أن أكشف كل شيء.."
بدا اشتعال غضبه واضحاً لعينيها وهو يصيح "خشيت؟ هذه كذبة جديدة.. كنت تتلاعبين بي، كما تلاعبت بالجميع.. لكنني كنت أحمقاً.. كان يجب أن أرى حقيقتك مع كل ذلك الكبرياء والعجرفة اللذين تتحلين بهما.. ربما كنت ستستمرين بكذبك حتى جلوسك فوق العرش.. ماذا كنت ستفعلن عندها؟ تأمرين بقتلنا جميعاً؟"
هتفت بعينين متسعيتين "أقتلكم؟ كيف يمكن أن تظن هذا بي؟ أقتلك أنت؟ أبهذا السوء تراني؟"
قال من بين أسنانه التي يضغط عليها بشدة "بل أسوأ.."
بهتت لقوله وهي تنظر إلى وجهه محاولة استشفاف حقيقة ما يقوله.. إنه يمزح.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً..
ثم قالت له بهمس "ألم تعد تحبني؟"
أدار ظهره لها وهو يقول بحدة "الملكة بي ناريا لا تستحق حب أحد.."
احتقن وجهها لتجريحه هذا، ثم صاحت بغضب "أنا لا أفهم سبب رفضك لي.. لماذا؟ مهما اختلفت هويتي، فوجهي هو ذاته.. فلماذا تكرهني؟"
قال بغضب شديد "وهل الوجه هو كل شيء؟ مهما كان وجهك فاتناً، ما دمت أنت من أنت فهذا ينسف كل شيء.. لقد أحببت قلبك الذي كنت أحسبه طيباً ونقياً.. ولم أكن أعلم أنك تخدعيني"
قالت بحدة "أنا لم أخدعك.. لو كان ما تقوله صحيحاً فما الذي تغير؟ أنا مازلت أنا.. لكنك أنت من تغير"
فقال وصوته يعلو بشدة "بالطبع تغيرت.. هناك فرق كبير بين الوصيعة جوين وبين الملكة بي ناريا.. فرق أكبر من أن تدركه وأنت عشت مرفهة في القصر.. لا تبالين بالجنث التي تيسرين عليها ولا بالدماء التي تسيل حول القصر، مادامت لن تلطخ أطراف ثوبك الحريري.."
احتقن وجهها وهي تقول "هذا.. هذا كان سابقاً.. الآن أنا تغيرت.. عندما عرفتمكم أدركت ما كنت أجهله سابقاً.. بعد أن عرفت أنك أنت يا هارولان تغيرت.. صرت أدرك أن الحياة ليست كلها حكماً وسياسة.. هناك شيء أجمل فيها، شيء لم يعلمني إياه أحد غيرك.. فهل ستنبذني الآن؟"
قال مشيحاً بوجهه عنها "إنسي كل ذلك إذن.. فكل ما بُني على خداع كان زيفاً"
بهتت لقوله لحظة، ثم غمغت بغير تصديق "زيفاً؟.. إذاً ما الحقيقة؟"
قال بصوت جاف "الآن أنا لا أطيق النظر إلى وجهك"
وغادر المكان بسرعة تاركاً إياها ترتجف، لكن كبريائها منعها من إظهار ضعفها وهي تشمخ برأسها وتستدير عائدة إلى البقية بخطوات واثقة مدممة لنفسها "فليكن ما يكون.. هذا يثبت لي أنني حقاً لا أنتمي لهذا العالم.. مكاني هناك، في القصر، وفوق العرش.. هذا هو المكان الوحيد الذي أنتمي إليه"

حاولت أن تتجاهل قلبها الذي يخفق بآلم.. أن تتجاهل عينيها اللتين احتشدتا بالدموع.. أن تتجاهل الغصة التي تشعر بها.. لكنها عندما عجزت عن ذلك، قالت بحق "تباً لهارولان.. من يظن نفسه؟ أيجسب أنني سأنهار عندما يصدني وأرجوه أن يعود إليّ؟ صدّه لي لن يجعلني أفقد ثقتي في نفسي.. لن يجعلني أبكي أو أحزن.. أنا قوية وسأبقى كذلك"

لكن روحها التي هوت في الحضيض أنبأتها أنها تكذب على نفسها.. دموعها التي تساقطت على وجنتيها أكدت لها انهيار قلبها.. تباً لك يا هارولان.. ما الذي فعلته بي؟..

اقترب الرئيس من هارولان الذي كان جالساً فوق صخرة يتأمل الأفق المنير الذي دلّ على قرب طلوع الشمس.. لا يكاد يأتي بحركة تدلّ على أن روحاً تسكن جسده.. فربت الرئيس على كتفه دون أن يلتفت هارولان إليه.. ثم قال "أفهم ما تشعر به.. تلك كانت صدمة كبيرة لنا جميعاً.. لكنها كانت صدمة بشعة عليك"

أطرق هارولان بصمت والألم يفيض من عينيه، فأضاف الرئيس "ورغم كل ذلك، أطلب منك الانتظار.. لا تُقدّم على فعل شيء قد يضرّ بنا وبما نطمح لتحقيقه"

غمغم هارولان بمرارة "تقصد ألا أقتلها الآن؟"

أومأ الرئيس إيجاباً وهو يجلس إلى جواره قائلاً "هذا ما عنيته بالضبط.. وإن كنت لست متأكداً أنك مازلت عازماً على ذلك"

شعر هارولان بغصة في حلقه وهو يقبض بشدة على قلادة فضية في يده، ثم قال مكتئباً "ما عدت أعرف ما يجب عليّ فعله.. كيف لي أن أنسى؟ كيف لي أن أتجاوز الأيام التي قضيتها والكوايس تلاحقني كل ليلة؟ صرت حائراً بين ما أريده الآن وبين ما كنت أريده"

سأله الرئيس مبتسماً "أنت تحبها مهما كان الأمر، أليس كذلك؟"

قال هارولان بمرارة "لا أستطيع أن أتناسى كل المشاعر التي احتلت صدري منذ عرفتتها.. لكنني أيضاً لا أستطيع نسيان ما أصبحت عليه بسببها وبسبب أبيها.. كيف أنسى من أفقدتني إياهم؟ كيف أخونهم وأخون الوعد الذي قطعته على نفسي وأنا أرى أجسادهم غارقة في الدماء من حولي؟ لو أنني لم أقع في شركها، لقطعت رأسها فور أن أدركت هويتها قبل أن ينتبه أحدكم لشيء.. أما الآن...."

قاطعه الرئيس بهدوء "أنت متأكد أنها شراك نصبتها لك؟ أليس حباً حقيقياً ما غزل خيوطه بينكما؟"

هتف هارولان بانفعال حاد "حباً؟ أتسمي تنكرها وخداعها حباً؟ أتسمي كذبها وادعائها حباً؟ شخص مثلها لا يمكن أن يحب إلا نفسه.. لقد كذبت عليّ، وأوهمتني أنها تحبني كي تحقق أهدافها.. كانت تريد العودة إلى العرش من جديد، وهي قد استخدمتني كوسيلة ليس إلا، كما استخدمتكم جميعاً"

قال الرئيس "ضع نفسك مكانها.. كيف تتوقع منها الاعتراف بهويتها أمام أعدائها ومن يرغبون بالإطاحة

برأسها؟ كيف لها أن تخبرك بحقيقتها وهي قد عرفت منذ البداية أنك تكرهها؟ لقد عرفت منذ مدة أنها لو أخبرتك الحقيقة فستخسرك على الفور، وهو ما حدث بالفعل"

صمت هارولان مطرقاً دون تعليق، فعاد الرئيس يربت على كتفه قائلاً "ربما من المفترض أن أقول لك أن تنسى الماضي وتتبع سعادتك.. إن الانتقام لن يفيد.. لكنني لست متأكداً أن هذا القول سيسبب في غليل قلبك أو سيجعل جراحك تلتئم.. هذه حياتك ولك مطلق الحرية فيما تفعله فيها.. كل ما أطلبه أن تنتظر حتى نحقق حلمنا بنشر العدل في كوكبنا.. بعدها افعل ما تريد"

غمغم هارولان بخفوت "أنا أدرك ذلك.. لا تقلق فلن أخالف أمرك"

غادر الرئيس المكان بصمت تاركاً هارولان الذي لم تفارق عيناه القلادة وهو يشدّ عليها بيده بقوة.. وتمتم لنفسه بمرارة "كيف لي أن أصبر وأنا أراها كل يوم؟ كيف أصبر وأنا أراها تضحك بسعادة بينما أنا فقدت كل شيء؟"

جلست بي ناريا بصمت في موقع بعيد قليلاً عن الثوار المجتمعين، وجوين قريبة منها تتأملها بصمت بدورها، بينما وقف الجنديين على مبعدة يراقبان بتحفظ رغم أن الثوار قد جردوهما من أسلحتهما.. وبين لحظة وأخرى تغمغم بي ناريا بحقن "لقد تأخروا.. هل يستحق تداول الأمر بعد اكتشافهم حقيقتي كل هذا الوقت؟"

تساءلت جوين "هل تثقين بهم يا مولاتي؟"

قالت بي ناريا مقطبة "قطعاً لا أثق بهم ثقة مطلقة.. ما يجمعنا هو حاجة مشتركة، لكنهم كذبوا علي ولاشك في رغبتهم تحريري.. أغلب الظن أن هدفهم الإطاحة بي أيضاً.."

فقالت جوين "أليس من الأفضل أن نهرب منهم قبل أن يعمدوا إلى أذيتنا؟"

قالت بي ناريا "ليس الآن.. إنهم رغم كرههم لي لا يمكنهم ايدائي.. أنا أعرفهم جيداً وأعرف أنهم لا يمكن أن يفعلوا هذا، وربما أقصى ما سيفعلونه هو حبسي.. لن أضيع فرصة التعاون معهم وأستسلم للشك"

ابتسمت جوين معلقة "لقد تغيرت مولاتي كثيراً في الأسابيع الماضية"

تساءلت بي ناريا بضيق "ماذا تعنين؟"

قالت جوين "أصبحت أكثر نضجاً، وأكثر صلابة من ذي قبل.. وكأنك قد كبرت عدداً من السنين دفعة واحدة"

قالت مقطبة "ما مررت به خلال هذه الأسابيع أسوأ مما رأيته طوال حياتي في القصر.. ولابد أن يؤثر هذا في.."

رأت الرئيس يقترب منها مما دفعها لتقف وتساءله "علام استقررتم؟ هل تقبلون عرضي لكم؟"

قال الرئيس بهدوء "لا يزال الأمر يحتمل الجدل.. لا أريد أن نخطو خطوة قبل أن أطمئن إلى موافقة جميع الرجال عليها.. خذي قسطاً من الراحة فقد بقيت مستيقظة الليلة بطولها.. سأبلغك قرارنا قبل انتصاف

النهار.."

ظلت تنظر له بحنق وهو يبتعد وهي تغمغم لنفسها "تباً لكم.. لم كل هذه المماطلة؟"
رأته يقف فجأة قائلاً لها "أتمنى ألا تحتكي كثيراً بهارولان.. فهذا أأمن لك حالياً.."
نظرت له بدهشة وهو يبتعد، مقلبة ما قاله في عقلها ومحاولة استنتاج أسبابه.. هل أصبح هارولان خطراً عليها الآن؟.. جلست تحت أقرب شجرة وهي لا ترغب بالتفكير في أمره أكثر وإيلا لم قلبها به أكثر وأكثر.. والتفت بمعطفها وهي تقول لجوين "سأرتاح قليلاً الآن.. أيقظيني قبل انتصاف النهار.."
اقتربت منها جوين وهي تنزع معطفها المصنوع من الفرو قائلة "تدثري بهذا يا مولاتي.. البرد شديد وهذا المعطف البالي لن يدفئك.."

نظرت بي ناريا إلى معطف جوين النظيف عطر الرائحة، وإلى معطف هارولان الذي بلي لكثرة الاستخدام، ثم قالت وهو تضم المعطف أكثر حولها "سأكتفي بهذا.."

استعادت جوين معطفها وهي تنظر لبي ناريا بعجب.. رغم أن معطف جوين، والذي منحته إياها الملكة الأم، لا يقارن بمعاطف بي ناريا المتعددة والغالية الأثمان، لكنه أفضل حالاً من هذا المعطف الذي اهترأ وحال لونه، ولا تعرف سر تشبث بي ناريا به وهي التي لم تكن ترص بالقليل..

أما بي ناريا فقد حاولت النوم هرباً من كل الإحباطات التي مرت بها، وكأنها ترغب عقلها على عدم التفكير في أي شيء الآن.. رفعت ياقة معطفها وهي تدفن وجهها فيه مستعيدة ذكرى لحظاتها القليلة برفقة هارولان.. تمت لو يكون بقربها الآن.. تمت لو يمنحها الأمان والدفع لتنام بقلب قرير.. لكن تفكيرها فيه قد أبعد النوم من عينيها وهي تتساءل عن حاله.. لقد صدم بحقيقتها، وهي صدمت بقسوته عليها وإنكار حبه لها.. أحقا زال حبه لها لمجرد أنها أصبحت بي ناريا وليست جوين؟ هذا أمر مستحيل، لكنها لا تستطيع الاستيثاق من أمره الآن وهو في فورة غضبه..

ومع ارتفاع الشمس في كبد السماء، اجتمعت بي ناريا بالثوار ملاحظة جلوس هارولان في جانب المكان وهو لا يرفع بصره عن يده القابضة على شيء ما، ولم يلق عليها أي نظرة منذ قدومها.. حاولت ألا تظهر اهتماماً به وهي تسأل الرئيس "إذن.. ماذا قررتم بشأني؟"

قال الرئيس بعد لحظة صمت "أغلب رجالي هنا يرفضون قدومك معنا، ويطالبون بتركك ترحلين مع جنودك.."
تساءلت بانزعاج "والخطة؟"

قال الرئيس "الخطة ستمضي كما هو مقرر لها.. بدونك.."

فكانت بحدة "لماذا؟ هدفنا واحد، فما الذي يمنع معاونتكم لي حتى أعود للقصر؟"
ابتسم الرئيس معلقاً "هدفنا هو إزالة مانيم وإقامة مجلس حكم يحكم المملكة، بدل استفراد ملك واحد بها يلقي بأوامره جزافاً كما يشاء.. كنا نريد تعاون الوصيصة لتسهيل دخولنا إلى المدينة والقصر.. أما أنت، فأشك أن تكوني ذات عون لنا، هذا إذا أمنا عدم انقلابك ضدنا وأنت محاطة بجنودك"
قالت بعصبية "مجلس حكم؟ أنت تمزح.. أليس كذلك؟"

لم يبد في نظراته الجادة أي دليل على هذا، فقالت وحدتها تزداد "لكن أنا ملكتكم ووريثة العرش كما أوصى الملك الراحل.. لا يمكنكم معاملتي بهذه الطريقة وإزاحتي كما تشاؤون.."

قال الرئيس وصوته يكتسب صرامة "أنت ملكة نفسك ولا حكم لك علينا.. لم نلق في ولايتك وولاية الملك الراحل إلا العذاب والدمار، فهل تظنين أننا سنعيدك للحكم بهذه السهولة؟"

فهمت بحلق "وهل تظن الجيوش الموالية للملك ستستسلم بهذه السهولة؟"

أجابها "ستستسلم لو أن هذا كان بإرادة شعب يناسًا والمملكة كلها"

فهمت من حديثه أنهم ينوون تأليب الشعب كله على حُكم المملكة.. فعضت شفتها السفلى بغيظ، ثم قالت "ولا سبيل هناك لأي هدنة؟ يمكنني معاونتكم في خطتكم هذه أكثر من السابق، وعودتي للعرش لا تعني أنه لا يمكن إنشاء مجلس للحكم.. هذا حل وسط يرضي الجميع.. أنا لم أت من هيمانيا إلى هنا لأتخلى عن هدفي الآن.."

قال الرئيس بهدوء "لا يمكن هذا بأي حال.. نحن نتخلى عن حمايتك ومعاونتك ونطلب منك الرحيل مع أتباعك.. وأضمن لك ألا يتعرض رجالنا لكم بسوء.. لكن إن تقابلنا في يناسًا فهذا أمر آخر.."

ظلت بي ناريا تتلفت بينهم وهي تفكر بشكل محموم.. هل تلقي بورقتها الأخيرة؟ كانت تلك الورقة هي وسيلتها الوحيدة لكسب معركتها ضد مانيم، فهل تشركهم فيها على أمل أن يتعاونوا معها أم تبقها سرًا مدة أطول؟..

عقدت عزمها فتقدمت من الرئيس قائلة بحزم "أريد محادثتك على انفراد.."

تساءل "إن كان هذا محاولة لإقناعي فالأمر لا يستدعي هذا.. قرارنا لن يتغير.."

قالت "إسمع ما أريد قوله وقرر بعدها"

نهض مبتعداً عن رجاله وهي تتبعه بصمت ملاحظة الأعين التي تحرق بهما.. ولما ابتعدا عن مسامع الآخرين سألهما "ما هو هذا الأمر المهم؟"

جلست على صخرة قريبة وهي تقول "أملك معلومة أخيرة أخفيت عنها عنكم، من شأنها أن تقلب كفة النجاح لصالحكم بالتأكيد.. لكن استفادتكم بها مرهون بمعاونتي في العودة للقصر"

قطب الرئيس معلقاً "وما هو هذا الأمر؟.."

أجابت "هناك ممرات سرية في القصر.. لها مخارج ومداخل مخفية وتقود إلى أرجاء القصر كله.."

اتسعت عيناه بدهشة متسائلاً "أليس القصر مصنوعاً من البلور؟ كيف يمكن إخفاء ممرات سرية بين جدرانها؟"

لوح ببيدها قائلة "الجدران الخارجية فقط مصنوعة من البلور، أما الجدران الداخلية فهي من أحجار عادية.. هذه فكرة خاطئة شائعة عن القصر"

قال مفكراً "لكن مانيم لن يتيح لنا استغلال هذه الممرات بحرية"

ابتسمت بثقة مجيبة "أؤكد لك أن مانيم لا يعلم عنها شيئاً.. ولا أي شخص آخر في القصر.. الملك الراحل كان الوحيد الذي يعلم بأمرها، وقد سلمني خرائط هذه الممرات بما أنني سأرث العرش.. ولا أظنك تعتقد أنني سأخبر مانيم عنها بطيب خاطر"

قطب الرئيس مفكراً وهي تضيف "هذه المعلومة لن تفيدكم في شيء ما لم أتعاون معكم وأدلكم على موقع هذه

الخرائط وكيفية فتح أبواب هذه الممرات.. وأؤكد لك أنكم مهما ضغطتم عليّ لن تحصلوا على أي معلومة ما لم تضعوا أيديكم في يدي وتقبلوا معاونتي"

فقال لها "من جهتي الأمر لا يحتاج لتفكير.. مع عددنا هذا يغدو من الصعب التغلب على مانيم دون أن نملك ما يجعلنا متفوقين عليه.. لكن إن لم أخط بموافقة رجالي فقد يتخلون عني وقت حاجتي لهم.."

قالت مقطبة "أنت تكثر من مشاورتهم في جميع الأمور.. لو كنت تريد طاعتهم لك يجب أن تفرض أمرك فرضاً" ابتسم قائلاً وهو يبتعد "هذا هو الفرق بين ما نطالب به وبين حكمك.."

ظلت بي ناريا جالسة تراقبه وهو يتقدم من رجاله الذين صمتوا متسائلين.. وما إن أبلغهم بقراره، دون أن يأتي على ذكر الممرات، حتى رأت الاستنكار واضحاً على الوجوه وبعضهم يعترض بكلمات واضحة.. وأكثرهم اعتراضاً كان هارولان الذي تراه غاضباً ويصرخ بحدة على رئيسه للمرة الأولى.. أما الرئيس فقد كان هادئاً كعادته وهو يقنعهم بمنطقة دون أن يبوح لهم بأمر الممرات إمعاناً في الحذر، ليحصل على موافقة البعض ومماطلة البعض الآخر.. أما هارولان فقد صاح بغضب "كيف تأمنون لها بعد كل ما فعلته بنا؟.. وفوق كل هذا هي استغفلتنا طوال هذه المدة مستغلة حمايتنا ورعايتنا وهي تسخر منا.. هل نسيتم أنها كانت طرفاً من المأساة التي مررنا بها جميعاً؟ كيف تعيدونها للحكم لترتكب المزيد من المآسي؟!"

قال الرئيس "نحن لا ننوي إعادتها للحكم.. الاتفاق أن نذهب بها إلى القصر فقط لتدلنا على ما يعيننا في حربنا.. أما ما يلي ذلك فكما خططنا سنشرك شعب المملكة كله فيه.. سنستفتيهم ونرى ما يختارونه.."

اقتربت بي ناريا منهم قائلة "لو أن الشعب كله قد اختارني.. هل ترضون بهذا؟"

صدّ هارولان عنها وهو يكتم غيظه بينما أجابها الرئيس "طبعاً لا يسعنا إلا أن نرضخ لهذا.."

صاح هارولان "أنت مغرورة لو كنت تظنين أن هذه الملايين التي تسكن الكوكب تدوب شوقاً لتطئها بحذائك.. رباك الملك الراحل على الغرور والتكبر والجبروت، فأى شيء نرتجيه في حكمك؟.."

احتقن وجهها وهو يكيل لها الاتهامات، بينما قال الرئيس محتداً "نحن لسنا هنا لنكيل التهم ونتجاوز احترام الآخرين يا هارولان.. تحدث بالمنطق أو التزم الصمت فهذا أفضل للجميع"

صمت هارولان وهو يلقي عليها نظرة كره عارمة، قبل أن يستدير ويغادرهم بخطوات غاضبة.. لاحظت بي ناريا وهي تراقبه أن شيئاً لامعاً قد سقط منه دون أن ينتبه، فاقتربت من موقعه وانحنت تلتقط الشيء الذي لم يكن إلا قلادة فضية ناعمة على شكل زهرة صغيرة.. بدت لعينيها رخيصة مقارنة بجواهرها الملكية المرصعة بأعلى الجواهر، فتعجبت من احتفاظ هارولان بها.. التفتت لترى الثوار منخرطين في الجدل من جديد، ثم تركتهم لتتبع هارولان وسط نظرات جوين المندهشة، والتي ابتسمت بشيء من الاستغراب وهي ترى اهتمام الملكة منصباً على الرجل ذو الجرح على خده.. ثم غمغمت لنفسها "لقد تغيرت مولاتي حقاً.."

أما بي ناريا، فقد عازمت على إعادة القلادة إلى هارولان وسؤاله عن صاحبه.. أهى زوجته الراحلة؟ أم أنها لشخص آخر؟..

عندما رآته جالساً على جذع شجرة سقط أرضاً وهو يرفع بصره إلى السماء ساهماً، اقتربت منه بخفوت وهي

تتأمل ملامحه التي علاها حزن شديد مقارنة بغضبه الذي احتل وجهه قبل قليل.. ولما انتبه هارولان لقدمها قال بجفاء على الفور "لم أتيت إلى هنا؟ عودي إلى الآخرين"
قالت بهدوء "ولم لا أبقى هنا؟"

قال بحدة "لقد حاولت تمالك نفسي كثيراً منذ عرفت حقيقتك.. ولو بقيت دقيقة أخرى معي فلن يلومني أحد لما سأفعله"

قالت مبتسمة "تقصد قتلي؟"

نظر إليها بمزيج الحدة والدهشة سائلاً "ما الذي يدعوك لهذا الظن؟"

قالت هازة كتفيتها "لقد حذرني الرئيس من الاحتكاك بك كثيراً.. كان غامضاً في حديثه، لكنني فهمت أنك كنت عازماً على قتلي قبل أن تلقاني، ولم يكن من الصعب استنتاج أنك مازلت عازماً على ذلك"
أشاح بوجهه قائلاً بخشونة "إذن ابتعدي عني وعودي إلى الآخرين فهذا آمن لك"

لكن عوضاً عن ذلك اقتربت لتجلس على ذات الجذع ملاحظة توتره الذي ازداد على الفور، ثم همّ بالنهوض مبتعداً، لكنها أمسكت يده تمنعه وهي تمد يدها الأخرى بالقلادة.. نظر هارولان إلى يدها بدهشة لثوانٍ، ثم اختطف القلادة من يدها وهو يصيح بغضب "إياك أن تلمسيها.."

قالت بحدة "لماذا؟ أتخشى أن تلوثها يداي؟"

وقف قائلاً بخشونة "بالضبط.. من هي مثلك لا يحق لها أن تلمس شيئاً نقياً كهذه القلادة"

وقفت بدورها والغضب يجعلها تصرخ "لماذا؟ ما الذي فعلته لك؟ لماذا بتّ تكرهني وتحتقرني لهذه الدرجة؟"
قال لها وهو ينظر إليها بغضب "تريدين أن تعرفي ما الذي فعلته لي؟ وما الذي سيفيد ذلك؟ لن يمكنك أبداً أن تصححي ما مضى.."

فهمت بإصرار "لكنني أريد أن أعرف.. ربما أستطيع تعويضك عن أي ضرر سببته لك دون أن أدري"
فوجئت به يمسك ذراعها بقوة ألتها وهي تجفل لنظرة عينيه اللتين تحملان كرهاً عارماً لها.. وقال بأنفاس ثائرة ضاغطاً على أسنانه "تعويضي؟ عن ماذا؟ هل ستعيدين والديّ اللذين قتلها جنودك؟ هل ستعيدين أخي الذي قتله جنودك؟ هل ستعيدين ابنتي التي قتلها جنودك أمام عيني؟ هل ستعيدين شقيقتي التي اختطفها الجنود وعذبوها لأسابيع قبل أن تنتهي مقتولة بدورها؟ هل ستُسّسني إياهم وهذا الجرح في وجهي يذكرني بهم كل ثانية من عمري؟ هل تستطيعين إعادة الماضي؟ بأي شيء ستعوضينني يا جلالة الملكة؟"

ودفعها بعيداً لتنتهاوى أرضاً بذهول وهي تنظر إلى وجهه الذي حمل غضباً ومرارة شديدين، ثم همست بصوت متحشرج "لكنني لم أفعل ذلك.. لا بد أن هذا كان من فعل مانيم.. لا علم لي بأي شيء حدث هنا"
قال بصوت حمل احتقاراً شديداً "كان الجنود يحملون أمراً من والدك الراحل بقتلي والقضاء على كل أفراد عائلتي.. أنت ابنته، وهذا لا يشرفك كثيراً.."

ثم أدار ظهره لها وهو يقول "منذ الآن وحتى تنتهي حاجتنا لك، بالنسبة لي أنت لا وجود لك.. وعندما يعلن الرئيس أنك ما عدت ذات فائدة لنا...."

ونظر إليها بنظرة قاسية من فوق كتفه "ستكون تلك لحظتك الأخيرة في هذه الدنيا.."

وغادر بخطوات سريعة متوغلاً في الغابة تاركاً إياها والذهول لا يغادرها.. ثم تحاملت على نفسها وعادت مرتجفة الخطى إلى البقية لتقف في مواجهة الرئيس الذي أخذ ينظر إليها بهدوء، ثم سألته بصوت مرتجف "أخبرني حقاً بما جرى لهارولان.. أصحيح أن الملك الراحل أصدر أمراً بقتله وجميع أفراد عائلته؟"

قال الرئيس "سنتحدث عن هذا لاحقاً.."

قالت بحدة ولهجة أمرة "أريد أن أعرف الآن.."

أخذ الجميع يتطلعون إليهما وفي العيون مزيج الدهشة والضييق والغضب لتصرفها مع رئيسهم.. لكن الرئيس نهض قائلاً "لنسر قليلاً حول هذا المكان.."

تبعته وهي صامته متلهفة لما سيقوله.. ولما ابتعدا عن الآخرين قال لها الرئيس "يحسن ألا نتحدثي عما جرى في الماضي أمام الآخرين.. فلكل منهم جراحه التي مازالت تؤله"

قالت "ما يهمني هو ما حدث لهارولان.. أخبرني عما أجعله"

فقال الرئيس وهو يتطلع إلى ما ظهر من السماء عبر فرجة الأشجار "حدث هذا في زمن الملك الراحل.. إن هارولان من أوائل الذين انضموا إلى المقاومة في إقليمنا.. لكن تم كشفه من قبل أحد الجواسيس أثناء إحدى العمليات التي قمنا بها ضد الوالي.. ولم تمض أيام قليلة حتى فوجيء بالجنود يقتحمون منزله الذي كنا نظنه آمناً.. كان ذلك قبل طلوع الفجر، ولم يتسن لهارولان الوقت الكافي لطلب مساعدتنا.. حاول مقاومتهم بكل ما يستطيع، لكن بدا أن مانيم قد جهز فرقة كاملة للتخلص منه ومن عائلته كلها.. تلك الليلة رأى هارولان مقتل أبويه اللذين لم يرحم الجنود عجزهما وكبرهما في السن، كما قتلوا أخيه الذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره بطلقات رشاشاتهم، وقتلوا ابنته ذات الثلاثة أعوام دون أن يرحموا صغر سنها أمام أبيها.. وقد كادوا يقتلون هارولان بعد أن تركوه آخر واحد ليشهد مقتل الجميع بعينيه، لكن بضع أفراد من جماعتنا تنبهوا لما يحدث ونجحوا في تهريبه من بين أيديهم، بعد أن حمل جرحاً عميقاً في خده، وجرحاً أعمق في روحه"

فقال مرتجفة "وشقيقته؟ لقد تحدثت عن شقيقته له.."

قال الرئيس "شقيقته كانت في منزل آخر بعيد حيث تعيش مع زوجها، ولما هرع إليها هارولان وجد الزوج مقتولاً في فراشه، ولم يجد أثراً لها في أي مكان مهما بحث.. وبعد عدة أسابيع، ومحاولات كثيرة من هارولان للانتقام من مانيم، فوجيء بوجود شقيقته في قبضة مانيم الذي حاول استدراجه وقتله مقابل الإفراج عنها.."

وتنهذ مضيقاً "لكن رغم محاولات هارولان، لم يستطع إنقاذها من قبضته، وانتهى بها الأمر مقتولة بيد مانيم الذي رمى جثتها من فوق سور القصر الذي يسكنه إمعاناً في إذلال هارولان.."

ظلت بي ناريا واقفة بصمت والارتياح لا يغادرها لما تسمعه.. أحقاً أمر والدها بهذا؟ هل كان والدها بهذه القسوة فعلاً؟ ثم قالت باعتراض "لكنني واثقة أن الملك لم يعلم عن شيء من هذا.. الملك طيب جداً، ولم يكن ليرضى بوحشية كهذه أبداً.. لقد حضرت الكثير من اجتماعات الملك حول هيமானيا، ورأيت الكثير من المراسيم التي صدرت بحقه، لكن لم يصدر أمر متعسف كهذا من الملك أبداً.."

قال الرئيس ناظراً إلى وجهها "مادام الملك قد رضي بتولية مجرم كمانيم على هذا الإقليم، وأغلق أذنيه عن صرخات الأبرياء فيه، فهو مشترك معه في الجريمة...."

هتفت بي ناريا "أنا لا يمكن أن أوافق على هذا الإجرام.. لم أعلم أبداً بما كان يفعله مانيم.. فما ذنبي ليكرهني هارولان بهذا الشكل؟"

قال الرئيس هازاً رأسه "أنت فعلت الشيء ذاته بعد توليك الحكم دون أن تتعظي مما حصل في السابق.. لا يحق لأي حاكم أن يدّعي عدم معرفة ما يقترفه ولاته.. فهو عندما سلمهم رقاب الرعاة مشترك معهم في كل ما يفعلونه.."

فقال بي ناريا بصوت مرتجف "وما ذنب هارولان بالذات؟"

أجاب الرئيس وهو يبتعد "هذا ما يجب أن تسألي مانيم عنه.."

تھاوت بي ناريا أَرْضاً والارتياح يثير رجفة في جسدها ودموعها تسيل على وجنتيها مثيرة حزناً ومرارة شديدين في صدرها.. غطت وجهها بيديها وبكت دون أن تجد سبيلاً لتهدئة نفسها والسيطرة على حزنها.. رغم رفض هارولان لها سابقاً، إلا أنها كانت نوعاً ما متأكدة أنه لم يكن صادقاً مع نفسه.. كانت متأكدة أنه يجبها ولا يستطيع كرهها حقاً، لكنه بحاجة لبعض الوقت لتجاوز صدمته.. أما الآن، فهي قد تأكدت تماماً أنها خسرت هارولان ولا أمل لها في رجاء عودته.. ومن الآن، وبعد أن كان يمثل لها الحماية والأمان والحنان، صار عليها الحذر والتوجس كلما تراه.. صار عدوها، كما كانت هي دوماً عدوته..
